

الفصل الأول

معاملات الأكثرية

سنصب الحديث في هذا الفصل بناء على الآيات السابقة على أسلوب الأكثرية في المعاملات وستساءل بادىء ذى بدء عن طبيعة معاملات الأكثرية التى تمثل بالنسبة للمعاملات بين بنى البشر عامة مشكلة كبرى؛ لأن الإنسان، أى إنسان كان، مضطراً بحكم كونه عنصراً فى المجتمع أن يتعامل معها حب أو كره، ونحن حينما نقف عند نص كقوله تعالى: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٢] فإننا نتعجب كثيراً من طبيعة البشر، مما يطرح تساؤلات كبيرة على الأسلوب الذى يمكن أن يتعامل به الأقلية مع الناس حينما يكونون بهذه الصفة.

وعلى هذا فسنستوقف عند أهم المجالات التى تتم فيها التعاملات، وخاصة تلك التى تحدث فيها القرآن الكريم، ومنها العهود والمواثيق السياسية والفردية، ثم أساليب التعامل المالى بين الشركاء والخلطاء، ثم دراسة مناهج الأكثرية فى الخطاب السياسى وغير السياسى، وسيوزع ذلك فى مباحث هى:

المبحث الأول: المعاملات المتعلقة بالعهود والمواثيق السياسية والفردية.

المبحث الثانى: التعامل المالى بين الخلطاء والشركاء عند الأكثرية.

المبحث الثالث: طبيعة الخطاب لدى الأكثرية فى مجال المعاملات.

* * *

● المبحث الأول: المعاملات المتعلقة بالعهود والمواثيق السياسية والفردية:

النصان المحوريان اللذان يشكلان التعبير عن طبيعة هذه المعاملات هما:

١- قوله تعالى: ﴿أَوْ كَلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ١٠٠].

٢- قوله عز وجل: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٢].

والنصان ينفيان عن الأكثرية الوفاء بالعهود المبرمة بين الأطراف السياسية والفردية، ويقدمان في الوقت نفسه العلل والأسباب التي تمنعهم من الوفاء، وتلخصها في سببين أحدهما عقدي وهو انتفاء الإيمان، وثانيهما سلوكي وهو الفسوق والعصيان، ومع ذلك فهناك بعض الفروق الجزئية بين ما تهدف إليه الصياغة في الآية الأولى، وما تهدف إليه في الآية الثانية.

أما الآية الأولى - وقد جاءت في سياق تبيين طبيعة المعاملات التي يقوم بها بنو إسرائيل إزاء الأنبياء والرسل والملائكة - فإن الصيغة التي جاءت عليها تبين أن أسلوب المعاملات مع المواثيق يتميز بتكرار النقض للعهود، ونبذ بعضهم لها، إذ تفيد صيغة اللفظ (كلما) التكرار، وهذا يفضى بأن يكون هذا هو دينهم وطريقتهم في الحياة مع الأنبياء والرسل، ومع الناس، وما دام الذين ينقضونها قد عبر عنهم بالفريق، فإن هذه المعاملات كثرت فشملت السلوك الفردي الذي يهدف إلى المصالح الفردية، والسلوك الجماعي الذي يأخذ الطابع السياسي بين المجتمعات والأمم والشعوب.

والآية التي تتلو هذه الآية مباشرة تبين نمطاً من أنماط نقض العهود، قال تعالى: ﴿أَوْ كَلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٠-١٠١]، ومعنى

الآية: كلما أبرم اليهود عهدا مع المسلمين رفضه فريق منهم، وهذا يعنى أن العهد قد نقض، إذا لم نقل هو فى حكم ما لم يبرم أصلا، لخلوه من النية الخالصة، والسبب فى ذلك أن أكثرهم لا يؤمنون بالله ورسله، ولذلك لما جاءهم محمد ﷺ مصدقا بالقرآن ما عندهم من التوراة والإنجيل نبذوا ما كانوا يعلمونه من كتاب الله وراء ظهورهم، وتغافلوه متجاهلين وجوده بين أيديهم حتى صاروا فى حكم من لا يعلم شيئا من ذلك.

فالآيات البينات تلقى هنا « بعض الأضواء الخاصة على خصلة من خصال بنى إسرائيل، ومن سار فى طريقهم إلا وهى خصلة الالتواء والتذبذب والرح الانتهازية الصرفة، وهكذا إذا أعطت جماعتهم للمسلمين عهدا لم تلتزمه كلها، وفى مجموعها التزاما تاما، بل إن فريقا منها ينبذه فى الحين وينتمى فى السر إلى الجانب المعارض، بينما يحافظ الفريق الآخر على العهد ظاهرا فيبقى مع الجانب الذى عاهدته، وذلك ليضمنوا مصالحهم مع كلا الجانبين، الجانب المتغلب اليوم، والجانب الذى يمكن أن يتغلب غدا، وهذا ما تشير إلى فحواه الآية الكريمة ﴿ كَلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ ﴾ كما يذكر الناصرى (١).

وأما الآية الثانية فتفيد صياغتها نفي وقوع الوفاء بالعهد على الأكثرية فقال ﴿ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ ﴾، وهذه الآية جاءت فى سياق يتحدث عن القرى والامم، يقول الله تعالى ﴿ تِلْكَ الْقُرَى نَقِصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ * وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ * ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَأْنَاهُ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [الاعراف: ١٠١ - ١٠٣]. ومعنى الآيات: هذه القرى التى أهلكتها وهى قرى نوح وعاد وئمود ولوط وهود وشعيب المتقدمة الذكر نتلوا عليك من إخبارها - لغرض التسلية - فما كان أولئك الكفار ليؤمنوا بعد

(١) المكى الناصرى: التيسير فى أحاديث التفسير ١/ ٦٤.

هلاكمهم لو أحييناهم... لأنه قد طبع على قلوبهم، ومثل طبعه على قلوب هؤلاء المذكورين، كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين بمحمد ﷺ، فالجميع كفار، والأكثر منهم لا أمانة لهم ولا وفاء، ثم بعثنا من بعد أولئك الأقوام موسى بن عمران بمعجزات فكفروا بها فانظر كيف كانت نهايتهم^(١).

فقد تبين من تجارب هذه الأمم كلها أن هذه هي الطبيعة الغالبة عليهم، وأيا كان العهد المقصود فإن أهل هذه القرى لا عهد لأكثرهم يتمسكون به، ويثبتون عليه، إنما هو الهوى المتقلب والطبيعة التي لا تصبر على تكاليف العهد ولا تستقيم، وقد كانت ثمرة التقلب ونقض العهد واتباع الهوى هي أن أكثرهم فاسقون^(٢)، وكانت عاقبة الفسق والفساد الاستئصال ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ الذين ظلموا وتجبروا وعتوا في الأرض، وكان بداية كل ذلك نقض العهد والدوام على ذلك السلوك حتى صار طبعاً، ومن شأن الطبع الفاسد إذا عم أن يسقط الدول والحضارات، وهذا ما تفيدته الصياغة التالية ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ فالأمة التي لا ترعى عهد الله والبشرية لا يمكن إلا أن تكون فاسقة وأن يكون أهلها من المفسدين.

وهكذا يتبين أن صياغة الآية الأولى ﴿أَوْ كَلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ وصياغة الآية الثانية ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ﴾ تفيدان أمراً واحداً وهو أن الطابع العام في معاملات الأكثرية على مستوى العهود والمواثيق الجماعية ذات الطابع السياسي، أو الفردية ذات الطابع الأخلاقي يتسم بالغدر والخيانة للمواثيق والعهود ينقضها حيناً ونبذها أخرى.

والآن يمكن التساؤل عن الأسباب التي تدفع بالأكثرية إلى هذا السلوك، على الرغم من وضوح ما يترتب عليه من فساد شامل للحياة الاجتماعية والأخلاقية والسياسية، إذ أن نقض العهود المبرمة بين الدول غالباً ما يؤدي إلى

(١) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن: ٢٥٥/٧.

(٢) في ظلال القرآن: ١٣٤٢/٩/٣.

التناحر والتقاتل بين الدول والشعوب بصورة لا تعرف التوقف، بسبب انعدام الثقة الناجمة عن نقض العهود والمواثيق، والتاريخ يحدثنا عن حرب داحس والغبراء التي استمرت في الجزيرة العربية أربعين سنة، ويحدثنا عن بنى إسرائيل وما فعلته بهم الشعوب المجاورة لهم، إذ شردهم البابليون في القرن السادس قبل الميلاد ومكثوا أربعين سنة في أسرهم، ثم قيض الله لهم الفرس فردوا لهم عزهم، فطغوا فسلط عليهم ثانية الرومان حين تمردوا عليهم حوالى منتصف القرن الثانى الميلادى وبذلك انتهوا وانقرضوا وتفرقوا فلم تخرج أو رشلیم من حكم الرومان إلا حين فتحها المسلمون فى زمن عمر بن الخطاب فى السنة السادسة عشرة للهجرة^(١) ثم قيض الله لهم بريطانيا فكونت لهم مجدا على أرض فلسطين سنة ١٩١٧ وجمعتهم من كل أصقاع الأرض حتى ليظن المرء أن هذه هى المشار إليها فى كتاب إرميا الإصحاح التاسع والعشرين بما يلى: «تطلبوننى فتجدوننى بكل قلبكم، فأوجد لكم يقول الرب، وأرد سبيكم وأجمعكم من كل الأمم ومن كل المواضع التى طردتكم إليها»^(٢).

ولكن السلوك الإسرائيلى حسب ما تبين كل أحداث التاريخ يؤسس بصورة مضطردة على الخيانة ونبد المواثيق والعهود، لذلك نتصور أن يسلط الله عليهم من جديد قوة أخرى تقهرهم وتذلهم جزاء ما يفعلون من عدوان وظلم، ولعل ذلك هو ما تنص عليه آيات مقدمة سورة الإسراء، لاسيما وقد طغوا وتجبروا وأفسدوا فى الأرض كثيرا جدا.

تلك حقيقة تاريخية تفرض علينا أن نتساءل عن الدوافع المختلفة التى تدفع الأكثرية إلى نقض العهود والمواثيق؟

● دوافع الأكثرية لنقض العهود:

إن النصين السابقين يتضمنان الإشارة لسببين هما؛ انتفاء الإيمان، وكثرة الفسق.

(١) التحرير والتنوير: ٢٩/١٥-٣٨

(٢) إرميا ٢٩/ص ١١٣٠ من الكتاب المقدس

١- أما الأول فهو ما تعبر عنه الآية: ﴿أَوْ كَلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ * وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿البقرة: ١٠٠ - ١٠١﴾، إذ أن قوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بمثابة تعليل لسبب تكرار نقض العهود ونبذها من بعضهم بصورة مضطردة، ويبين ذلك ما جاء بعده من تمثيل بزمن الرسالة الخاتمة، إذ جاء الرسول مصدقا لما فى التوراة والإنجيل فنبت فريقتين من أهل الكتاب القرآن كما لو أنهم لم يعرفوا عن هذه الرسالة ونبيها شيئا فى ما بين أيديهم من كتب سماوية يدرسونها، قال الحسن البصرى فى قوله ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ «نعم ليس فى الأرض عهد يعاهدون عليه إلا نقضوه ونبتوه، يعاهدون اليوم وينقضون غدا»^(١)، وقال الصابونى: «بل أكثر اليهود لا يؤمن بالتوراة الإيمان الصادق لذلك ينقضون العهود والمواثيق»^(٢).

نعم إن الآية جاءت فى سياق الحديث عن بنى إسرائيل، ولكن الظاهر أن الآية شاملة لكل من لا يؤمن يهوديا كان أو غيره، فكل من لا يؤمن - فى الغالب - لا يرعى موثقا سياسيا ولا أخلاقيا ولا اقتصاديا، فالذى يهمله هو المصلحة العاجلة ليس غير. وليس أدل على ذلك من بيع المواثيق والعهد بثمن قليل كما يبين ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٧٧].

ويتكرر الحديث عن دور فساد العقيدة فى نقض العهود فى قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ * كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةَ يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿[التوبة: ٧-٩].

(٢) صفوة التفسير: ٨٣/١.

(١) الكشاف: ١٣٤/١.

فالاستفهام الإنكارى يتكرر فى هذا الموضع مرتين لبيان استبعاد حدوث العهد ممن لا يملأ قلبه الإيمان، ففى الأولى ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ ۚ﴾ .
 أى أن المشركين لا يمكن أن يكون لهم عهد مبنى على العقيدة، لأنهم أساساً مشركون فإيمانهم بالله الواحد غير قائم، مما ينفى أن يصدر منهم عهد يوثق به،
 فالسؤال الاستنكارى هنا يشير «تنصب على مبدأ التعاهد ذاته، لا على حالة معينة من حالاته»^(١) وفى الثانية ﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً ۚ﴾ أى أن المشركين لا يمكن أن يصدر عنهم عهد لأنهم فى الأساس «لا يعاهدونكم إلا فى حال عجزهم عن التغلب عليكم ولو ظهروا عليكم وغلبوكم لفعلوا بكم الأفاعيل فى غير مراعاة لعهد قائم بينكم وبينهم وفى غير ذمة يرعونها لكم... فهم لشدة ما يكونونه لكم من البغضاء يتجاوزون كل حد فى التنكيل بكم لو أنهم قدروا عليكم فى التنكيل بكم»^(٢)، قال أبو حيان وهذا كله تقرير واستبعاد لثبات قلوبهم على العهد^(٣)، وهكذا يتبين السبب الأول فى عديم مراعاة العهود عند الأكثرية، وهو متناسب تماماً مع ارتفاع نسبة الكفار والمشركين كما رأينا فى الباب الأول.

٢- أما السبب الثانى فى كون الأكثرية لا ترعى عهداً ولا ميثاقاً فهين الفسوق، وهو الذى تعبر عنه الآية: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٢] وكان الصياغة تفيد أنه إذا لم نجد لأكثرهم صفة الوفاء بالعهد فإن ذلك طبيعى مادام أكثرهم فاسقين، أى أن نقض العهود من مستلزمات المجتمع الفاسق، وعليه فإن هذه الظاهرة تكثر فى المجتمع بكثرة الفسق، يقول قطب: «هذا - أى الفسق - هو السبب الأصيل لهذا الحقد الدفين عليكم، وإضمار عدم الوفاء بعهودكم، والانطلاق فى التنكيل بكم لو قدروا... إنه الفسوق عن دين الله والخروج عن هداة، فلقد آثروا على آيات الله التى جاءتهم

(١) فى ظلال القرآن: ٣/١٠/١٦٠٤ . (٢) نفسه: ١٦٠٥ .

(٣) صفوة التفاسير: ١/٥٢٣ .

ثمنا قليلاً من عرض هذه الحياة يستمسكون به ويخافون فوته، وقد يخافون أن يضيع عليهم الإسلام شيئاً من مصالحهم، أو أن يكلفهم شيئاً من أموالهم، فصدوا عن سبيل الله بسبب شرائهم هذا الثمن القليل بآيات الله»^(١) فالعلاقة بين نقض العهود وبين التلبس بالفسق والفجور قائمة، لترتب هذا على ذلك وتعلقه به وارتباطه به ارتباط العلة بالمعلول، ولذلك وجدنا القرآن في موضع آخر يجعل نقض العهود صفة لازمة للفاسقين، كما يبين ذلك قوله تعالى: ﴿... يَضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ * الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [البقرة: ٢٦-٢٧] قال ابن عاشور «وجملة الذين ينقضون - إلى آخره - صفة للفاسقين لتقرير اتصافهم بالفسق لأن هاته الخلال من أكبر أنواع الفسوق بمعنى الخروج عن أمر الله تعالى»^(٢).

وخلاصة القول: إن الأكرثية ظلت بلا عهد لسببين اثنين أحدهما الشرك وانتفاء الإيمان، وثانيهما استيلاء الفسوق على حياتهم، والأول يمنعهم من الوفاء بالعهد من جهة عدم انسجامه مع عقائدهم، والثاني يمنعهم من جهة تعارض الوفاء مع قضاء شهواتهم.

* * *

(١) في ظلال القرآن: ٣/١٠/١٦٠٦.

(٢) التحرير والتنوير: ١/٣٦٧.